

تقديم وتأخير الأسماء المزدوجة في القرآن الكريم ودورها في دلالات الآيات

داود معماری*^١ (الأستاذ المشارك، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، إيران)حيدر الجعباوي الكعبي^٢ (أستاذ في كلية التربية، جامعة ميسان، العراق)محمد رضا پيرچراغ^٣ (الأستاذ المساعد، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، إيران)محمد سبحان ماهري قمي^٤ (المجستير في نصح البلاغة، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، إيران)DOI: [10.22034/JILR.2024.140343.1108](https://doi.org/10.22034/JILR.2024.140343.1108)

تاريخ الوصول: ٢٠٢٣/١٢/١٨

تاريخ دریافت: ١٤٠٢/٠٩/٢٧

صفحات: ١١٣-١٣٧

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٣/١٧

تاريخ پذیرش: ١٤٠٢/١٢/٢٧

الملخص

إن مبحث التقديم والتأخير من أكثر المباحث البلاغية والدلالية التي نالت اهتمام علماء المعاني والمفسرين، ذلك الاهتمام الذي تجلّى في رصدهم لصور التقديم والتأخير المتعددة في القرآن الكريم، وما تؤديه كل صورة من قيمة دلالية تفسيرية مضافة إلى المعنى الأساسي. إن التقديم والتأخير واد من أودية البلاغة، وإن هذا المقال يدرس التقديم والتأخير في بعض الآيات القرآنية، وفي هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي مع المنهج التطبيقي واستخدام موارد المكتبة من أجل الإجابة على الأسئلة مكانة التقديم والتأخير في اللغة العربية، البواعث والأسباب في التقديم والتأخير و شأن التقديم والتأخير في مفردات القرآن الكريم تم تحديده بعد التحقيق أنّ التقديم والتأخير في القرآن الكريم لغرض يقتضيه المقام، والمعنى الإلهي، والسياق القرآني، وكل تقديم وتأخير فيه جرى على حكمة بالغة، وقدرة فائقة و له جزئان. قسم في علم البلاغة وهو تقديم بعض الأركان والأجزاء في الجملة، نحو تقديم المسند على المسند إليه أو تقديم المفعول على الفاعل؛ والقسم الآخر يبحث في تقديم وتأخير المفردات في القرآن؛ نحو الجن والإنس، السماء والأرض، الليل والنهار، والشمس والقمر وغيرها من الأسماء المزدوجة.

الكلمات المفتاحية: التقديم، التأخير، الأسماء المزدوجة، الدلالة، القرآن الكريم

١ الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: memari@isr.ikiu.ac.ir

٢ البريد الإلكتروني: alkaabi.hayder1985@gmail.com

٣ البريد الإلكتروني: m.pircheragh@isr.ikiu.ac.ir

٤ البريد الإلكتروني: orvatolvosgha110110@yahoo.com

تقدیم و تأخیر اسماء مزدوج در قرآن کریم و نقش آنها در دلالت و معانی آیات

چکیده

مبحث تقدیم و تأخیر (جلبه جا کردن یک لفظ از جایگاه طبیعی آن) یکی از مباحث بلاغی و معنایی قرآن کریم و از اسباب اجمال است که همواره مورد توجه دانشمندان علم معانی، قرآن پژوهان و مفسران قرار گرفته است. این اهتمام در کنکاش پیرامون جنبه‌های مختلف اسلوب تقدیم و تأخیر در قرآن کاملاً ظهور و بروز دارد تا جاییکه هر گروه (بلاغیون - مفسران) به جنبه‌ای از زیبایی این هنر از حیث معنا و دلالت و تفسیر آن توجه نموده است. در این پژوهش، سعی شد تا به کشف اسرار و بیان معانی آیات شامل تقدیم و تأخیر در اسماء مزدوج قرآن بپردازد؛ از این رو شیوه تحقیق توصیفی تحلیلی بوده که با رویکرد کاربردی و تطبیقی از منابع کتابخانه ای برای پاسخ به سوالات تحقیق بهره گرفته است. مهمترین سوالات اصلی تحقیق حول جایگاه اسلوب تقدیم و تأخیر در زبان عربی، انگیزه ها و اسباب تقدیم و تأخیر و نیز جایگاه و اهمیت تقدیم و تأخیر در فرهنگ واژگانی قرآن کریم است. پس از بررسی مشخص شد که تقدیم و تأخیر در قرآن کریم برای مقصودی است که مقام و معنای الهی و سیاق قرآنی، آن را اقتضا می‌کند و هر تقدیم و تأخیر در قرآن با درایت، حکمت عالی و قدرت برتر الهی همراه بوده است. این مقاله در دو بخش تنظیم شده است: بخش نخست؛ بررسی این مقوله از زاویه علم بلاغت است شامل: تقدیم برخی از عناصر و اجزای جمله، تقدیم مسند بر مسند الیه و یا تقدیم مفعول بر فاعل و بخش اصلی پژوهش پیرامون تقدیم و تأخیر واژگان در قرآن است که به بررسی مواردی مانند تقدیم و تأخیر اسماء جن و انس، سماء و أرض، لیل و نهار، شمس و قمر و مانند آنها از دیگر اسماء مزدوج در قرآن می‌پردازد.

کلیدواژه‌ها: تقدیم، تأخیر، اسماء مزدوج، دلالت، قرآن کریم

المقدمة

ومن أجل إيصال مفاهيم القرآن للإنسان، استخدم الله تعالى كلمات وعبارات يتبع ترتيبها وموقعها في الجملة الأدب العربي في ذروة البلاغة، والتقديم والتأخير، بالإضافة إلى تحميل المظهر، تسبب فعالية في بعض المفاهيم والانطباعات. بمعنى آخر، يستخدم القرآن ترتيباً خاصاً في الجمل مع المضارع للتعبير عن غرضه وهدفه، بحيث يمكن نقل الرسالة بمنتهى الدقة ويمكن التعبير عن أكبر معنى بأقل عدد وأصح الكلمات.

إن مبحث التقديم والتأخير من أكثر المباحث البلاغية والدلالية التي نالت اهتمام علماء المعاني والمفسرين، ذلك الاهتمام الذي تجلّى في رصدهم لصور التقديم والتأخير المتعددة في القرآن الكريم، وما تؤدّيه كل صورة من قيمة دلالية تفسيرية مضافة إلى المعنى الأساسي.

والقرآن الكريم هو كلام الله المعجز للخلق، في أسلوبه، ونظمه، وفي روعته، وجماليته البيانية، وقد اجتمع أهل العربية على أن القرآن معجز بذاته، لفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وقوة أسلوبه، الذي لا يشابهه أسلوب آخر من نثر و شعر؛ واسلوب التقديم والتأخير من مظاهر إعجاز القرآن، فعندما ننظر في أجزاء الآية، ونتأمل الجزء الذي قدم فيها، نراه أنه أهم الأجزاء فيها، ولم يقدم الأ لكونه هو الأهم من جهة، أو له معني أنيق و عميق إضافةً إلى دلالة مفرداته. وهو موضع عناية الناس و اهتمامهم، فالعناية والاهتمام أصل كل تقديم، ثم إن تقديم اللفظ وتحويله من مكان إلى آخر، يغير معنى الآية وهذا لا يكون عبثاً أو جزافاً في القرآن الكريم، وإنما يكون وفق أسس وضوابط وإغراض يقصدها المتكلم الحكيم، الخبير بطرق الكلام، البصير بالأساليب، فيقدم ويؤخر عن خبرة وبصيرة وحكمة.

وحين تناولنا هذا الموضوع، كنا على علم بان عددا من الباحثين قد سبقونا إلى تناول هذا الموضوع، وقد وقفنا عند وجهاءنا نظرهم وآراءهم في بعض المباحث، واستفدنا منها، ومع ذلك أصبحنا لدي رغبة في تناول هذا الموضوع من زاوية أخرى، و كلي ثقة في أن نقدم شيئاً جديداً لم يصل إليه الباحثون قبلنا، وانا لندرجوا أن نكون قد حققنا بعض ما تطلعتنا إليه في كتابة هذا البحث المتواضع والموضوع الشيق والجميل.

وقد ساعد البحث الذي استهدف مقاصد العرض والتأخير وطرق التعبير عنه في القرآن الكريم على فهم معانيه وجماله، وبيان سبب الاختلاف في بعض تفاسير القرآن الكريم، وتحديد أسبابه أفضل استخدامات التقديم والتأخير و تناولنا في هذا البحث التقديم والتأخير لغة واصطلاحاً، وأسباب وبواعث التقديم والتأخير في بلاغة بعض الآيات الكريمة، وبعد ذلك بحثنا تقديم وتأخير الأسماء

المزدوجة في القرآن الكريم، كتقديم وتأخير الجن والإنس، والسماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وغيرها من الأسماء المزدوجة، و ناقشنا في سبب التقديم فيه. ثم ختمنا بخاتمة ذكرنا فيها بعض نتائج البحث.

أسئلة الدراسة

١. ماهي مكانة التقديم و التأخير في اللغة العربية و لاسيما في المصحف الكريم؟
٢. ماهي البواعث و الأسباب في التقديم والتأخير؟
٣. ما هو شأن التقديم و التأخير في مفردات القرآن الكريم؟

خلفية البحث

القرآن الكريم أس الإسلام و شريعته؛ و السنة تنبثق منه و الأحكام تصدر عنهما. فعلي العلماء المسلمين أن يحيطوا علي أغراض القرآن- ما استطاعوا- حتي يحصلوا على أحكامه حقاً. بحث العلماء عبر القرون حول موضوعات عديدة في القرآن و الفوا كتباً فيه. و التقديم والتأخير في القرآن إحدى المباحث الدخيلة في التفسير. و نجد هذا الموضوع في الكتب التفسيرية و البلاغية و النحوية. و نحن أصحاب حصّة من بعضها في هذا المقال؛ نحو: الميزان، الكشاف، الكتاب و دلائل الإعجاز و

والنظر إلى الخلفيات المجمعّة في مجال التقديم والتأخير يدل على أنه في اللغة الفارسية كتب ومقالات مثل «بررسی مسأله تقديم و تأخير در قرآن» تأليف مليحه پورستار مهادي، «جمله شناسی قرآن با تکیه بر تقديم و تأخير عبارات» تأليف على أكبر توحيدلو؛ رساله دکتری «بررسی تحلیلی مسأله تقديم و تأخير در قرآن کریم» محمدحسين قاسم پیوندي، نگرشی جامع به گونه شناسی تقديم و تأخير لفظی در قرآن نصیرالدین جوادی، ترجمه و تحقیق بلاغه التقديم و التأخير في القرآن الكريم جلد (١) پدید آورنده ابوبکر یوسفی لاجی وایضا في اللغة العربية "أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم" للسيد شيخون "الآثار" التقديم والتأخير في القرآن الكريم" لمنير محمود المصري، "التقديم والتأخير في القرآن الكريم" حميد أحمد العامري "التقديم و التأخير في محرمات النكاح في القرآن الكريم دراسة دلالية جمالية نويسنده: غازى حسين، تومان؛ كاظم حميدى" خالد دخل مجال الكتابة. وقد

تناول في هذه المؤلفات عموماً موضوعات التقديم والتأخير، ولم يذكر التقديم والتأخير في الأسماء المزدوجة ودورها في معاني الآيات. ولذلك فمن المهم أن نميز هذا البحث عن الأبحاث الأخرى.

مفهوم التقديم والتأخير

التقديم لغةً

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «القدمة والقدم» السابقة في الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس/٢) أي سبق لهم عند الله خير. وقدم فلان قومه أي يكون إمامهم، والقدم الماضي أمام، أي يمضي قدماً ولا يثنى، ورجلاً قُدِّمَ مقتحم للأشياء يتقدم ويمضي في الحرب قُدِّمًا (الفراهيدي، ١٩٨٦م: ١٢٢/٥).

وأقدمَ بمعنى تقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة والإقدام في الحرب (الزمخشري، ١٩٧٣م: ٢٣٤-٢٣٥). وقال ابن منظور: القَدَمُ والقُدْمَةُ: السابقة في الأمر وتقدم كقدم، وقدم واستقدم: تقدم آخرته فتأخر، واستأخر كتاباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (الحجر/٤)، والآخر: خلاف الأول، ويقال: لا مرحباً بالآخر، أي: بالأبعد. وقال أيضاً: التقديم من فعل قدم أي وضعه أمام غيره وفي أسماء الله تعالى المقدم هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في مواضعها فمن استحق التقديم قدمه (ابن منظور، ١٩٩٢م: ٣٥٥٢/٥-٣٥٥٦).

وأيضاً التقديم هو أقدم على الأمر شجع، وأقدمته وقدمته، وتأخر وآخر تأخيراً واستأخر. (الفيروزآبادي، ٢٠١٨م: ٣٧٩/١). وأما ابن فارس فيرى أن «القاف والبدال والميم أصل صحيح يدل على سبق و... ثم يُفرع منه ما يقاربه ويقولون: القدم خلاف الحدوث ويقال شي قديم إذا كان زمانه سابقاً، وأصله قولهم: مضى فلان قُدِّمًا، لم يعرج ولم يثنى» (ابن فارس، ١٤١٦ق: ٦٥).

التأخير لغةً

قال ابن منظور التأخير: «من الفعل أَّخَّرَ هو نقيض قَدَّمَ والمؤخر هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في موضعها والتأخير ضد التقديم، ومؤخر كل شي بالتشديد خلاف مقدمه» (ابن منظور، ١٩٩٢م: ١٢/٤). وقال الفيروزآبادي: «الأخَّرُ: بضمين ضد القُدِّمُ وتأخر وآخر تأخيراً استأخر وأخرته لازم متعد، وآخرة العين مؤخرتها» (الفيروزآبادي، ٢٠١٨م: ٣٧٦/١). وأما قول الزمخشري في «آخر: جاءوا على آخرهم.

والنهار يجد عني آخر فأخر، ومضى قدماً وتأخر أُخراً، وجاءوا في أخريات الناس، ولا أكلمه آخر الدهر» (الزمخشري، ١٩٧٣م: ١٣).

التقديم والتأخير اصطلاحاً

التقديم والتأخير في اللغة متناقضان، حيث يعني الأول وضع الشيء أمام غيره، وقد كان خلفه، ويعني الثاني وضع الشيء خلف غيره وقد كان أمامه، وبالمعنى نفسه انتقل هذا المبحث من الوضع اللغوي إلى الدلالة الاصطلاحية أو المعنى الاصطلاحي.

اعتاد العرب على تقديم ما حقه التأخير لفضل دلالةٍ وبتمام معنى، وتأخير ما حقه التقديم للغرض ذاته، وذلك «يجعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص، أو أهمية أو ضرورة» (البغدادي، ١٩٧٧م: ١٨٩). و أيضاً أنهم يقدمون الشيء الذي شأنه أهم، وهم به أعنى، وإن كانا جميعاً مهمين» (السيبويه، ١٩٩١م: ١٥/١). ويقول الدكتور عون: «قلما نجد تصریحاً لعلماء العربية بتعريف مصطلح التقديم والتأخير، ولعل ذلك راجع إلى وضوح المصطلح وشدة اتصاله بالمعنى اللغوي» (عون، ١٤٢٩ق: ٤٣/١).

وللتقديم والتأخير أهمية عظيمة في كلام العرب، هو باب كثير الفوائد حجم المحاسن واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتقر لك عن بديعه، ويفضي لك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويطلق لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك و اللطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان (الجرجاني، ١٩٩٩م: ٨٣).

بواعث وأسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم

إن أسباب وبواعث التقديم والتأخير في القرآن الكريم كثيرة، ومتداخلة في ما بينها، وقد ذكر كثير من الباحثين عدة بواعث وأسباب للتقديم والتأخير، و قسّمته في القرآن على النوعين تقسيماً رئيسياً:

التقديم و التأخير في البلاغة

و هذا الموضوع يدور حول تقديم بعض الأركان أو الأجزاء بعضاً في الجملة، لغرض هام عند المتكلم؛ وفق اقتضاء الكلام. فمثلاً نقدم المفعول على الفاعل تارةً أو متعلقات الفعل عليه أخرى. و وصل العلماء الي أكثر من ثلاثين سبب التقديم و باعته في علم البلاغة. و أما أنا فسوف أقتصر على

البواعث والأسباب التي تُعنى بها دراستي، وابتعد عن البواعث والأسباب التي لا مساس لها بالموضوع ومن هذا البواعث التي احتاجها في دراستي هي:

١. التقديم والتأخير بحسب الاختصاص: ومن أمثلة هذا التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّيَّ فَارْهُبُونَ﴾ (البقره/٤٠). وفي هذه الآية تقدم المفعول على الفعل. لأنه ينبغي أن تخاف الله عز وجل لعظمته وجبروته. ولذلك فإن أعظم خوف الإنسان هو من الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ﴾ (يونس/٢٨)، أي أنه في القيامة يكون للأصنام عقل وكلام، فينكرون أصنامهم أو يعلنون جهلهم، لذلك عليك أن تخاف من غضب الله

٢. التقديم بحسب التقدم الزمني: كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من قَبْلِ هُدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿ (ال عمران/٣-٤) فتقديم التوراة على الإنجيل هو تقديم زمني، وكذلك تقديم الإنجيل على القرآن لأن القرآن متأخر زماناً عن الإنجيل. و أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ (الحج/٧٧) فقدم الركوع على السجود لأنَّ زمان اتيانه في الصلاة متقدم عليه. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة/٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (ال عمران/٦٨)، فالنبي الأكرم محمد(ص) أفضل من أتبع النبي ابراهيم الخليل(ع) ولكنهم قدموا عليه لوجودهم قبله(ص) زماناً.

٣. التقديم والتأخير بحسب الاستدراج: كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنًا وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء/٣) ففي الآية ترقى من العدد اثنين إلى الثلاث إلى الأربع، فقدم الاثنين على الثلاث والثلاث على الأربع. وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا حَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة/٧). وفي هذه الآية أيضاً يسبق ثلاثة في أربعة، وأربعة في خمسة، وخمسة في ستة، ادنى على أكثر.

٤. التقديم والتأخير بحسب السياق والمقام: سياق الآيات، العلاقة بين آيات القرآن بشكل عام أو العلاقة الفكرية أو الحسية أو الخيالية الخاصة أو غيرها من أنواع العلاقة، أهم الأدلة ما يدل على صدق المعنى وتوافق مع السابق وانسجامه بالمعنى المقصود. بمعنى آخر، السياق هو البناء

العام الذي يربط بين أجزاء الكلمة المختلفة ويجعلها متصلة ومتصلة ومتناسبة مع بعضها البعض ويؤدي إلى ظهور المعنى. سياق الآيات يتكون من جزئين. أولاً: من الزاوية الخارجية، وهو ما يعرف بالسياق الخارجي، وهو خارج الكلمة المستخدمة، ويكون له تأثير في تحديد المعنى. والآخر من الزاوية الداخلية والتي تعرف بالسياق الداخلي وهو المعنى والقياس الذي ينشأ من داخل الكلمة وهو نتاج الترتيب الطبيعي للكلمة ويتضمن سياق الكلمات والجمل والآيات كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء/٩١)، فالسياق كان في ذكر مريم (عليها السلام)، في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وقدم ابنها عيسى (ع) في موضع آخر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون/٥٠)، فالسياق هنا هو الذي يوضح لنا سبب التقديم والتأخير. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ (البقرة/٢٤٥)، قدم سبحانه القبض على البسط، لأن سياق الآية يناسب التقديم، فإن السياق في نفس الآية فيه ترغيب بالإنفاق، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، فان القبض مقدر لالمحال.

٥. التقديم والتأخير حسب الكثرة والغلبة: كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة/٣٨) فقدم السارق على السارقة، لأن السرقة في الذكور أكثر من الإناث. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن/١٥) قدمت الأموال على الأولاد لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد. وأيضاً في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف/٤٦) (آل عمران/١٤) وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ (النور/٢) فقدم الزانية وهي المرأة لأنها مدعاة للريبة وهي الطريق إلى جذب الرجل. و أيضاً تقديم البنين على المال في آية ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ وحينما يكون السياق عن الحب والمحبة يقدم الولد على المال لأنه الأحب إلى الرجل - كما ذكرت في سؤالك - ولذلك تجد تقديمه على المال

٦. التقديم والتأخير بحسب الشرف والرتبة: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّعُوا اللَّهَ وَاطِّعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء/٥٩) فتقديم طاعة الله عزوجل على طاعة الرسول وأولى الأمر هو بحسب الشرف والرتبة؛ لأن طاعة اله بالأصالة و إطاعة النبي بالتبع. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَخَّى الْأَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج/٥٢)

فالرسول أفضل وأشرف من النبي. و فضله على النبي برسالته خاصةً. لأن النبي ليس إلا مبلغ ملة الرسول السابق وما له رسالة جديدة.

٧. التقديم والتأخير بحسب السبب والمسبب: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة/٢٢٢) فقدمت التوبة على الطهارة لأن التوبة هي سبب الطهارة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْفَاسِي كَثِيرًا﴾ (الفرقان/٤٨-٤٩) فقدم ذكر البلدة الميتة لأن في حياتها حياة الأنعام، فمن نباتها تأكل وتنمو، وقدم الأنعام على الأناسي، لأن في حياة الأنعام حياة هؤلاء.

٨. التقديم والتأخير بحسب الأحكام الشرعية: كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ تَسْلُكٌ﴾ (البقرة/١٦٩) فقدم الصيام على الصدقة والصدقة على النسك. لأن الصيام في شهره حكم ربيسي و إن لم يستطع العبد فعله الصدقة ثم الاستغفار. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ۚ ذَلِكُمْ يُوعَظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ (المجادلة/٣، ٤) وكما في بعض الآيات تقديم الصلاة على الزكاة وغيرها. وهناك بواعث وأسباب بلاغية أخرى؛ و في هذا القسم اكتفينا بما أشير.

التقديم و التأخير في المفردات

كثيراً ما نجد في القرآن، أسماء نظيرة تتقدم بعضها بعضاً. و هي كالجن و الإنس، و الليل و النهار، و السموات و الأرض و... و تقدم إحداها تارةً و تؤخر أخرى؛ و هذا بالنسبة الي السياق و القرينة. و ناقشنا هنا في بعض الأسماء المزدوجة وفق المجال. فالإبتداء بالجن و الإنس:

الجن و الإنس

ورد في كثير من الآيات القرآنية ذكر للجن و الإنس و قد جاء مختلفين و على غير النسق، مرة يتقدم الإنس على الجن في بعض الآيات، و مرة أخرى يتقدم الجن على الإنس، و ذلك تبعاً لما يقتضيه السياق و المعنى، و كان تقديم الجن أكثر من تقديم الإنس في بعض الآيات و قد اختلف في سبب ذلك التقديم، حتى قال بعضهم: «قدم الإنس في بعض الآيات لشرفه و قدم الجن في بعضها الآخر لأنهم أقدم خلقاً أو لأن خلقهم أعجب و أغرب، أو لأنهم أقوى أجساماً و أعظم إقداماً» (العارضي، ٢٠١٢: ١٨٦).

وفي الحقيقة أن السياق هو الحاكم في توجيه هذا التقديم والتأخير، فحينما يرد احدهما مقدّم على الآخر ينظر إلى سياق الآية التي وردا فيها، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا﴾ (الجن ٥)، فالوجه في تقديم الإنس هنا هو أن هذا القول حكاية كلام مؤمني الجن حينما سمعوا آيات من القرآن الكريم، و أول من خوطب بالقرآن هم الإنس، ونزل القرآن على نبيهم، وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن بالابتداء بذكر الإنس، لتقدمهم في الخطاب بالقرآن، وتقدمهم في التصديق والتكذيب وكذلك فإن الجن قالوا هذا القول لقومهم بعد أن رجعوا فتقدمهم للإنس أحسن في الدعوى وأبلغ في عدم التهمة، حتى لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم

فمن سياق الآية السابقة عرفنا أن تقديم الإنس هنا هو أن هذا القول قول مؤمني الجن واعترافهم بأنهم ظنوا أن الإنس والجن صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله، فلما وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى صاحبة الولد أذعنوا به وقلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجن (الطباطبائي، ١٤١٨ق: ٤١/٢٠).

لعل هذا الكلام (أي كلام الجن) إشارة إلى التقليد الأعمى للغير (مكارم الشيرازي، ١٤٣٢ق: ٨٢/١٩). وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ...﴾ (الانعام/١١٢)، فإن هذه الآية القرآنية جاءت لتسلية النبي(ص) على شدة عداوة قريش، فكان الأولى أن الإنس لأن أشد ما لقيه الأنبياء(ع) كان من الإنس.

كما جعلنا لك شياطين الإنس والجن أعداء كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأمهمم (الطبرسي، ١٤٠١ق: ٥٤٤/٤). وأما تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الاسراء/٨٨)، ففي هذه الآية تحدي وإعجاز للتقلين على الإتيان بشيبيه للقرآن الكريم، فتقديم الإنس هنا مناسب لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم وهم أهل الفصاحة والبيان والنبي(ص) كان منهم.

ويقول أبوحيان: «ويحتمل أن يكون ذكر الجن هنا لأن النبي (ص) بعث إلى الإنس والجن فوقع التعجيز للتقلين معاً لذلك» (الاندلسي، ١٤١٨ق: ١٠٩/٧). معناه يا محمد، قل لهؤلاء الكفار: إذا تعاونت الجن والإنس على الإتيان بمثل هذا القرآن -من حيث الفصاحة، البلاغة والنظام- على وجه مساوي له من كل وجه، وخالي من التناقض. كلام غني إذا لم يستطع السامعون التمييز بينهم فشلوا.

ويحتمل أن يكون ذكر الجن في هذه الآية هو لأجل التعميم لدفع الإشكال الذي يرد من المتحدين بإعجاز القرآن بأنهم كانوا يظنون أن الجن قادر على الإتيان بمثله، فجاء الجواب بهذه الآية، فهذه الآية ونظيراتها فيها دلالة على إعجاز القرآن الكريم وتحدي لكل بلغاء العرب وكل العالم أيضاً تحدي للجن والإنس عموماً، وهذا التحدي ساري المفعول إلى يومنا هذا.

أما في الآيات التي قدم فيها الجن على الإنس كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات/٥٦) فيرى البعض أن «الوجه في تقديم الجن على الإنس هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية، وعبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء، وعبادة الإنس جهرية يدخلها الرياء» (خليل ياسين، ١٤١٣ق: ٢/٢٢٤) وهذا التوجيه جميل ولكن البعض لا يرتضيه، ويقول: «فقد حملت الآية جملة خبرية مقتضاها أن خلق الجن والإنس هو من أجل عبادة الله وحده، فابتدأ بذكر الجن لسبقته في الخلق» (حسن عباس، ٢٠٠٩م: ٢١٢). وجهة نظر الباحث هي ذلك يمكن اعتبار تقدم الجن على الإنس هو سبب خلقهم قبل خلق آدم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَ الْجَانُّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر/٢٧)

وفي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ (الانعام/١٣٠) فقدم ذكر الجن في هذه الآية لأنهم كانوا السبب في إغواء الإنس، فالخطاب واقع في يوم الحشر، وهذا الخطاب موجه إلى الجن على سبيل التبيكيت على ما فعلوه من الاستكثار من الإنس وإغوائهم.

ولمزيد من التحقير حذف فعل القول أو النداء، والتقدير: ويوم نحشرهم جميعاً فينادى عليهم، أو يقال لهم، وما قيل هذه الآية يؤكد هذا المعنى (العارضي، ٢٠١٢م: ١٨٩). وقيل أن الابتداء بالجن لغلبتهم أو أن السياق يبين الغلبة والكثرة في الإغواء كما في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ (فصلت/٢٩) ففي هذه الآية ابتداء الكافرون بطلب رؤية الجن، لأنهم كانوا سبباً لإغوائهم. وهذا يدل على تقديم الجنة على الناس عند الاستعاذة كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس/٦) لعل شرور الجن في الإغواء أكثر من الإنس.

وقوله تعالى: ﴿فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ (الاعراف/٣٨؛ فصلت/٢٥؛ الاحقاف/١٨)، فكان الابتداء بالجن لأن سياق الحديث عن الأمم الحالية. فابتدأ بهم لتقدمهم في الخلق وكذلك لأنهم أصل في الإغواء (البقاعي، ١٤١٣ق: ٧/٢٧١). وأما في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل/١٧)، فهنا أيضاً قدم الجن على الإنس ويقول الزركشي: «فابتدأ بالجن لقوتهم، أو لأن أمرهم أعجب» (الزركشي، ١٤١٢ق: ٣/١٦٤). وأيضاً في

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَعْطَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ (الرحمن/٣٩)، فالابتداء بالجن لأنهم الأقوى والأقدر على الصعود إلى السماء وهو أليق بهم إن استطاعوا ذلك (الفخر الرازي، ١٩٩٠م: ٢٩/١١٤).

أما في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن/٣٩)، فهنا السياق استدعى أن يتقدم الإنس على الجن لأن الله تعالى ابتداءً بذكر خلق الإنسان قبل ذكر خلق الجن في الآيات السابقة على هذه الآية، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٤﴾﴾ (الرحمن/١٤-١٥)؛ بل ابتداءً خلق الإنسان من أول السورة، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾﴾ (الرحمن/١-٣)، فهناك من يقول أن تقديم الإنس على الجن في هذه الآية هو مراعاة للتواصل القرآنية، التي تنتهي بالألف و النون، وهذا ما يراه الكبيسي إذ يقول: «إنه من أجل اتساق النظم والحفاظ على الجرس» (الكبيسي، ١٤١٥ق: ٧٦).

ولكن الدكتور ألمسييري يرى أن تقديم الأشياء في القرآن لا يأتي من أجل تناسق التواصل في الآيات، فالله تعالى «نزه القرآن أن يكون شعراً، وحاشاه أن يقدم أو يؤخر من أجل الحفاظ على الجرس، فسبحانه من لا يعجزه شي قادر على أن يأتي بهذا الجرس من غير هذا التقديم» (المسييري، ١٤٢٦ق: ٦٣٣) ولكن القرآن الكريم راعى ما يتطلبه ويقتضيه المعنى، ولم يفعل ذلك حرصاً على الانسجام الموسيقي وحده.

السموات والارض

ورد لفظ السموات ولفظ الأرض في كثير من الآيات القرآنية وقد اختلف الترتيب بينهما حيث تقدمت السموات على الأرض في أكثر المواضع، وقدم لفظ الأرض على السموات في بعض المواضع، وقد ورد لفظ السموات مرة مفرداً بلفظ (سماء) وأخرى جمع (سموات) بينما لم ترد (الأرض) إلا بلفظ المفرد. ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٢﴾﴾ (البقرة/٢١-٢٢)، فقدم ذكر الأرض على السماء لأنها أقرب إلى النظر والتأمل، فيها المستقر والمعاش والفرش. وسياق الآية يدل على عبادة الله وحده وشكره على نعمته التي أنعمها على الناس فكان التقديم للأرض هو الأنسب. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ (آل عمران/٥)، فتقديم الأرض هنا إظهاراً

للاعتناء بشأن أحوال أهلها واهتماماً بما يشير إلى وعيد ذوي الضلالة منهم، وليكون ذكر السماء بعد من باب العروج، قيل ولذا وُسط حرف النفي بينهما (الألوسي، ٢٠٠٥م: ٧٨/٣).

ويرى الزمخشري أنه تعالى قدم في الآية السابقة موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له، خلفهم أحياء قادرين أولاً، لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرها، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومقبله ومفترشه، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبقة على هذا القرار، ثم ما أنعم به عز وجل من إنزال الماء من السماء إلى الأرض وأخرج من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم (الزمخشري، ١٩٧٣م: ٨٨/١).

وهناك من يرى أن تقديم الأرض على السماء ليس على أساس الأفضلية وإنما هو تقديم وجودي، أي أن خلق الأرض قبل خلق السماء، إذ الأرض موجودة قبل السماء. ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (فصلت/٩-١١) وأما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٩)، فظاهر الآية في قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أنه تعالى خلق الأرض قبل السماء لأن (ثم) تدل على التراخي والترتيب، غير أن هذا يعارض بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النارعات/٣٠)

ويوفق بين الآيتين بأن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء غير أنه لم يدحها، فلما خلق السماء دحها بعد ذلك ودحوها بسطها ومدها (خليل ياسين، ١٤١٣ق: ٣٩/١). وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَلَوْنَهُ مِنْ فُرْقَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس/٦١) قال الزمخشري: «فإن قلت: لم مُدَّت الأرض على السماء؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (ولا يعزب عنه)، لآءَمَّ ذلك أن قدم الأرض على السماء» (الزمخشري، ١٩٧٣م: ٣٧/٢).

توجيه جميل لهذا الكلام هو ذلك لأنها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض كما قال (ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً) فقدم ذكر الأرض تنبيهاً على ذلك لما كان له من اختصاص به»

(العلوي، ١٩٩٥م: ٤٢/٢)، أو كما يقول الزركشي أن يكون ذلك التقديم انتقالاً من الأقرب إلى الأبعد (الزركشي، ١٤١٢ق: ١٨١/٣-١٨٢). ومن الآيات التي تقدم لفظ الأرض فيها على السماء قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ (طه/٥)، قدم ذكر الأرض على السموات لأن الآية سيقت في مجال ذكر الرحمة بتنزيل الكتاب لأهل الأرض والترفق بهم، ثم اتبعها ذكر السموات. إنه تعالى بدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، «وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى» (البيضاوي، ١٤١٨ق: ٤١/٤).

وأما قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (سبا/٢) يشير الفخر الرازي إلى أنه ذكر ما يلج في الأرض أولاً وألحق به ما ينزل من السماء، وذلك لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٢٥/٢٥-٢٤١)، والبدار يكون في الأرض والسقي يكون أكثره من السماء وهذا يعني أن التقديم والتأخير هنا زمني. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ ۗ بَلْ إِنْ يَعْذِبُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (فاطر/٤٠)، فقدمت الأرض لأن الكلام في سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة، وأمر الأرض أسهل وأيسر من السماء بكثير، فكان الابتداء بالأرض مبالغة في بيان العجز.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر/٤١) فهنا كان التقديم للسموات والتأخير للأرض. وقدمت السموات على الأرض تبييناً على عظم قدرته سبحانه، لأن خلقها أكبر من خلق الأرض (الزركشي، ١٤١٢ق: ٢٨٥).

وأما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَبَّتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/١٦٤) فيرى أبوحيان الأندلسي أن مجيء السماء قبل الأرض هو لعظم خلق السماء أو لسبق خلق السماء على خلق الأرض (الأندلسي، ١٤١٨ق: ٧٧/٢).

ومما يتصل بهذا التقديم التأخير ويستوجب الوقف عنده ذكر خلق السموات والأرض سابقين على ذكر اختلاف الليل والنهار وكذلك لاحقين لهما. ومن هذه المواضع ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران/١٩٠) وقد عكس هذا

التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس/٦) ففي سورة آل عمران لما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران/١٨٩) اتبعه بذكر خلق السموات والأرض ومن ثم ذكر اختلاف الليل والنهار، وأما في سورة يونس فقد ذكر قبلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس/٥)، إن معرفة عدد السنين والحساب إنما يكون باختلاف الليل والنهار، فناسب ذلك أن يتبعه باختلاف الليل والنهار. وهذا الإزاحة المكانية تعتمد على السياق أو السياق، ولها معنى خاص في كل منهما. ولهذا السبب تتكرر الآية عدة مرات بنفس الكلمات، ولكن عندما توضع في سياق جديد يتغير ترتيبها وبنيتها ويحدث اختلاف في المعنى.

الليل والنهار

ورد لفظ الليل والنهار في كثير من الآيات القرآنية وقد تقدم الليل في مواضع على النهار وبالعكس تقدم النهار على الليل. ولكن الليل كان متصداً على النهار في أكثر المواضع. ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ﴾ (البقرة/١٦٤) وقد ذكرت في سبب تقديم الليل والنهار علتان، إحداهما: أن الليل أشرف من النهار (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٣١/٢)، والعللة الأخرى: هي أن الليل سابق للنهار (التركشي، ١٤١٢ق: ١٤٥)، ويحتمل أن يكون شرف الليل على النهار هو بسبب مشقة العبادة بالليل لأن المصلي يترك النوم والراحة، والشرف ليس للوقت وإنما لأجل الأعمال التي تحصل فيه، فالليل بالعبادة أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء. ولأجل هذا جاء الليل والنهار في معرض الثناء على المنفقين مقابلين بالسر والعلن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (البقرة/٢٧٤)، قال الآلوسي: «وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإيدان بمزية الإخفاء على الإظهار» (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٤٧/٢). وأما علة السبق الزمني أي أن الليل سابق النهار فهذا الأمر عرفي، كان العرف عند العرب أن الليل سابق على النهار، وقد يكون هذا السبب راجحاً لهذا التقديم. يقول الفخر الرازي: «الظلمة طبيعة عدمية، والنور طبيعة وجودية. والعدم في المحدثات مقدم على الوجود» (الفخر الرازي، ١٩٩٠م: ٨٣/٢٧). ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الانعام/١) أو ربما لأن النهار إنما ينسلخ من الليل كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ﴾ (يس/٣٧)،

وقد عرفنا اليوم من العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل جانب وإن الجزء الذي تكون فيه حالة النهار هو الهواء الجوي الذي يحيط بالأرض، ويمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد، وإذا دارت الأرض سلخت منه حالة النهار الرقيقة التي كانت ناشئة بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزئيات الموجودة في الهواء، وهو مما يسبب النهار فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل.

وقد اختلف التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ (الشمس/١-٤) فهنا قدمت جملة النهار على جملة الليل وهذا خلاف التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وما خلق الذكر والأنثى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (الليل/١-٤). فالتقديم الذي ورد في سورة الشمس هو تقديم وتأخير حسي يتناسب مع قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس/٩-١٠) لأن التزكية هي التطهير والانكشاف واللدس هو إدخال الشيء في شيء آخر بالإكراه والإرغام. وهناك تقابل وتناظر حسي بين هذه الآيات والآيات السابقة لها أما التقديم والتأخير في سورة الليل فهو يتناسب والسياق والمقام أيضاً. يقول ابن القيم: «قابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإنائه على اختلاف أنواعه، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها» (بنت الشاطي، ٢٠٠٤م: ٢٥/١). ويبدو أن تقدم الليل على النهار كان ليتناسب مع تقدم الذكر على الأنثى، فالليل أصل ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّةُ هُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ ﴾ (يس/٣٧)، وأيضاً الذكر أصل ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (النساء/١)، وهناك كان تصدر الأوصالان (الليل والذكر) على الفرعين (النهار والأنثى) مناسبة وانسجاماً.

الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان/٢٩). اجتمع لفظ الشمس والقمر في كثير من الآيات القرآنية، وقد قدم لفظ الشمس على القمر في أكثر من المواضع، وقدم لفظ القمر في موضعين فقط، ومن مواضع تقديم الشمس على القمر قوله تعالى: ﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ... ﴾.

فكان الابتداء بذكر الشمس قبل القمر، ومع تقدم الليل في بداية الآية على النهار، والسلطان في الليل هو القمر، والشمس هي سلطان النهار.

فيعلل الفخر الرازي ذلك: «إن الابتداء بالليل كان لأن النفس تطلب بسببه أكثر مما تطلب بسبب النهار، أو لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون أعجب منه» (الفخر الرازي، ١٦١/٢٥: ١٩٩٠ م). ومما قدم فيه لفظ الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف/٤)، فتقديم الشمس على القمر هنا لكبر حجم الشمس وسطوع نورها، وتقديم الأشياء في هذه الرؤيا ملاحظ فيه الترتيبي، والشمس والقمر - وإن كانا من جملة الكواكب - لكنهما أفردا هنا لمزيد من الفضل والشرف (الاندلسي، ١٤١٨ ق: ٦: ٢٣٨).

قول الفخر الرازي في جواب من يسأل: «لم أحر الشمس والقمر؟ قلنا: أخرهما فضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف» (الفخر الرازي، ١٩٩٠ م: ٨٩/١٨). والابتداء بالشمس قبل القمر لأن ظهور الشمس أكثر من ظهور القمر الذي يحتفي محاقاً، ثم يظهر هلالاً غير مرئي، بينما الشمس ظاهرة على الدوام، بمعنى أن الناس في أكثر الأوقات يرونها، فالنهار الذي تسببه معاش ويقظة لهم، وأما في الليل فلا يرى القمر إلا القليل من الناس، من حيث إنه قد يظهر متأخراً أو أنهم يغطون عنه في النوم (المسيري، ١٤٢٦ ق: ٤٩٢).

ومن الآيات التي قدم فيها القمر على الشمس ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الانعام/٧٦-٧٨). فالتقديم هنا بمقتضى سياق الآيات، حيث أنها تنقل لنا محاجة إبراهيم (ع) مع قومه وتلطفه بهم من أجل إنقاذهم من ضلالة الشرك، فكان (ع) يستدرجهم بالدليل العقلي الحسي ويقرب لهم الحقيقة بما تدركه عقولهم، فتراه يُعرضُ بضلالهم في مسألة القمر، كما عرض بهم في مسألة الكواكب، فأحر الشمس لأجل إقناعهم وإلقاء الحججة عليهم لأن الشمس أكبر وأعظم من الكواكب والقمر.

الآيات في الحقيقة مصداق كامل من القيام بدين الفطرة والانتهاض لنشر عقيدة التوحيد والتنزيه عن شرك الوثنية «وهو الذي انتهض له إبراهيم (ع) والتابعون له من ذريته الأنبياء من طريقة التوحيد» (الطباطبائي، ١٤١٨ ق: ١٥٤/٧)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

(نوح/١٦)، فجملة القمر هنا تقدمت على جملة الشمس، وعزا بعضهم هذا التقديم إلى موافقة الفاصلة في كلمة (سراجاً) مع (فجاجاً) وغيرها من الفواصل (الكبيسي، ١٤١٥ق: ٩٣). واعترض على هذا التوجيه المسيري، وقال لو كان هذا التقديم معكوساً، أي ابتداءً بجملة الشمس وانتهى بجملة القمر وكانت الفاصلة (نوراً) لتناسب أيضاً مع الفواصل الأخرى: (نهاراً) و (قراً) و (استكباراً) و (جهاراً) (المسيري، ١٤٢٦ق: ٤٩٢).

ولعل تقديم القمر هنا لسياق الآية حيث أن الآية السابقة تكلمت عن السموات وجعل القمر فيهن نوراً، وفي جواب سؤال يقول الرازي: «كيف قال (وجعل القمر فيهن نوراً) والقمر ليس فيها (أي السموات) بأسرها بل في السماء الدنيا؟ الجواب: هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيزٍ من جملة أحياز العراق فكذا هاهنا» (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٣٠/٦٥٠).

الذكر والأنثى

من الموارد التي جاء فيها التقديم والتأخير هي لفظ الذكر والأنثى، فإنهما افتردنا في أربعة عشر موضعاً حيث تقدم لفظ (الذكر) على الأنثى في أكثر المواضع وقد تقدم لفظ الأنثى في موضع واحد. ومن مواضع تقديم الذكر على الأنثى كما جاء في قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (النجم/٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكْرَ وَالْأُنثَى﴾ (النجم/٤٥)، وقوله تعالى: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (ال عمران/١٩٥). أن السبب في تقديم الذكر على الأنثى عائدٌ إلى أن الذكر أفضل من الأنثى.

ومما يستدلوا به على تفضيل الذكر على الأنثى قوله تعالى: ﴿لِلذَّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء/١١)، فلما كان نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى تقرر أن يكون الأفضل، ولكن بعض المفسرين أرادوا أن يجيروا خواطر الإناث في توجيه مراد الشارع المقدس: «كأنه جعل إرث الأنثى مقررًا معروفاً، وأخبر أن للذكر مثله مرتين، أو جعله هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولاً عليه يعرف بالإضافة إليه، ولولا ذلك لقال: للأنثى مثل حظ الذكر» (رشيدرضا، ١٩٤٧م: ٤/٤٠٦)، ومثل هذا التوجيه وجبر الخواطر نجده عند ابن عاشور فهو يرى أنه جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولولا هذا لكان صالحاً أن يؤدي المعنى بنحو: للأنثى نصف حظ الذكر، أو

للأثنين مثل حظ الذكر وكل ذلك من أجل ترسيخ أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهتزمة الحق في الجاهلية.

وهذه التوجيهات فيها جانب كبير من التلطف بحق الإناث، وفيه وجه من الصحة وقد نص القرآن الكريم في فضل الذكور على الإناث في كثير من المواضع. من جانب الورثة والقيومة والشهادة كما في قوله تعالى: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (البقرة/٢٢٨)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ (البقرة/٢٨٢)، وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء/٣٤). وأفضلية الذكر على الأنثى أفضليةً وظيفية تكوينية، وهي لا تعني أن الذكر أفضل عبادة وتقوى وصلاً من الأنثى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ (الحجرات/١٣)، وربما أساء بعض الرجال في تفسير القوامة أنها الهيمنة والتسلط على المرأة، وإنما القوامة في الرحابة والإدارة الحكيمة. أما الموضع الوحيد الذي جاء فيه لفظ (الإناث) مقدم على لفظ (الذكور) فهو قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى/٤٩) أن الله عز وجل يسعى إلى أن تقع الخاتمة على خير وسرور وبهجة، فإذا وهبه الأنثى أولاً ثم وهبه الذكر ثانياً كان قد نقله من غم إلى فرح وهو أليق بالكرم، وفي هذا القول نظرة الحيادية للذكور وليس غريباً على المفسر وغيره ممن يذهبون إلى هذا الرأي فإنهم محكومون بظروف اجتماعية تقلل من شأن المرأة ولا يبعد عن هذا الرأي ما ذهب إليه الزركشي حيث يقول قدمت الإناث على الذكور هنا وذلك «لجبرهن، إذ هن في موضع انكسار» (الزركشي، ١٤١٢ق: ١٦١/٣). والظاهر من هذا التقديم هو تعريضاً بأهل الجاهلية الذين يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور وهذا الرأي يتناسب مع ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل/٥).

موسى و هارون

ورد اسم موسى و هارون (ع) في القرآن مجتمعين في عشرة مواضع قدم فيها اسم موسى في تسعة مواضع، وقدم اسم هارون في موضع واحد. وقيل: إنهما حيث جاءا بترتيب معين فإن ذلك مراعاةً للفاصلة القرآنية (الزركشي، ١٤١٢ق: ١٦٣/٣). غير أن هذا الكلام محل خلاف بين الكثيرين، فقد جاء (موسى) قبل (هارون) في أربعة مواضع من غير مراعاة للفاصلة، وفي خمسة منها مراعاة للفاصلة القرآنية وحيء بهارون قبل موسى في موضع الفاصلة، في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه/٧٠)، إذ إن سورة (طه) تنتهي بفاصلة الألف ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك

الْقُرْآنَ لِيَتَشَفَى ﴿١٣٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴿١٣٣﴾ (طه/١-٣) والفاصلة تراعى كثيراً في القرآن الكريم بقصد تحسين الكلام مع الحفاظ على المعنى. وقد عقدت هذه القضية فصلاً في كتب إعجاز القرآن الكريم إذ إن الفاصلة حجة قوية عند الكثير في مراعاة القرآن، على نسق السجع حتى قيل: أي إعجاز في أن يقال مرة: (موسى وهارون) ومرةً أخرى (هارون وموسى)

فلا يكون وجود الفاصلة القرآنية على حساب المعنى. وهذا ما يذهب إليه الدكتور السامرائي إذ يقول: «إن القرآن الكريم لا يُعنى بالفاصلة على حساب المعنى، ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه فهو يختار الفاصلة مراعىً فيها كل الأمور التعبيرية والفنية، بل مراعىً فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه ... وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال» (السامرائي، ٢٠٠٦م: ٢١١). وقيل إن مجيء (موسى) قبل (هارون) في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ادخل في دفع توهم ان يكون فرعون هو المراد من قولهم (رب موسى وهارون) لأنهم لو اقتصروا على (رب موسى) لأوهم أنهم أرادوا (فرعون) لأنه ربّ موسى وهو صغير، فلما أردف بذكر هارون زال هذا التوهم، وقيل جيء بـ (موسى) أولاً لشرفه (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٢٦/٩).

أما الموضوع الوحيد الذي قدم فيه (هارون) على موسى في سورة طه فقد قيلت في سبب هذا التقديم عدة أقوال، أهمها: أن هارون أكبر من موسى سناً فهو يكبره — (ثلاث سنوات) (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٢٦/٩). وقيل: إن هارون أفصح من موسى لساناً (الحسناوي، ١٤٠٥ق: ١١٩). وقيل أيضاً إنه قدم هارون لأنه ذكر كثيراً في سورة (طه) وأنه ذكر خوف موسى وهو ما أدى إلى أن يكون لاحقاً الذكر (السامرائي، ٢٠٠٦م: ٢١١)، ويعلل أحد الباحثين هذا الاختلاف في التقديم الذي جاء عليه (موسى) و (هارون) بما مقتضاه أن هذا الكلام من قول السحرة فهل يعني ذلك أن الله تعالى حكى قولهم بلفظه ام بمعناه؟ فان كان بمعناه صح كل ما قيل من توجيهات، لأنه من التفنن في أساليب الكلام، وأما إن كان بلفظه فإنه يكون مشكلاً، لأنهم لا بد أن يكونوا ابتدأوا بأحدهم وانتهوا بآخر. ويضم هذا الكلام إلى رأي آخر، هو أن السحرة حكوا أقوالاً عديدة، فقال بعضهم: (رب هارون وموسى) وقال الآخر: (رب موسى وهارون) وقال آخر: (رب العالمين) وهكذا اختلفت الأقوال وتباينت الأساليب، وجُهر في بعضها وحُفّت في بعضها الآخر، فكان الذي حكاه القرآن من أقوالهم هو الوجه الغالب فيها، وهذا يتفق وصدق القرآن وإعجازه (الخطيب، ١٩٦٤م: ٢١٩/٢). وقد عدّ

باحث آخر أن السبب في أقوال السحرة المتعددة هذه هو ظهور معجزة (موسى) وهو ما جعلهم يلقون سجداً متلعثمين. (الحسناوي، ١٤٠٥ق: ١٢٠)، فرما جرى اللفظان أي التقديم مرة والتأخير أخرى على لسانهم مرتين على غير هدى وبصيرة بسبب الدهول والرهبة من معجزة موسى.

الصائبون والنصارى

لقد ورد ذكر هاتين الطائفتين في القرآن في ثلاثة مواضع وقدم لفظ النصارى في موضع واحد على لفظ الصائبين. أما الموضوعين الآخرين فقدم لفظ الصائبين، والصائبون "قوم كانوا على دين نوح، وقيل لكل خارج من الدين إلى دين آخر، صابئ من قولهم صبأ ناب البعير، إذا طلع، وقد تخفف همزته فيقرأ (صايبين) (الراغب، ٢٠٠٣م: ٨٩)، وهناك من عدّهم من المشركين، وقيل: إنهم مجوس، وليسوا مجوس، لأن القرآن ذكرهم إلى جانب المشركين والمجوس، إذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (الحج/١٧).

وقد اختلف المفسرون وأصحاب الملل والنحل في تشخيص هويتهم ووجه تسميتهم، غير أن جل الباحثين لم يتفق على أصل التسمية هو من (صبأ) التي تعني الخروج، أي إنهم خرجوا من دين إلى دين آخر (السبزواري، ٢٠٠٣م: ٣٠٤/١)، أما النصارى فقبل سمو بذلك لقوله تعالى: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ (الصف/١٤)، وقيل: «سموا بذلك انتساباً إلى قرية يقاله نصرانة، فيقال نصراني، وجمعه نصارى» (الراغب، ٢٠٠٣م: ٨٠٩).

الصائبون متقدمون في الزمان على النصارى، والنصارى هم أصحاب المسيح (ع)، وعلى هذا الأساس قدم الصائبون على النصارى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى...﴾ (الحج/١٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى...﴾ (المائدة/٦٩)، وأما سر تقدم لفظ النصارى على لفظ الصائبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى...﴾ (البقرة/٦٢)، فقدم لفظ النصارى على الصائبين لأنهم أشرف منهم لأن النصارى من أهل الكتاب والصائبون لا كتاب لهم كما ذهب إلى ذلك كثير من العلماء. ثم أتى يذكر الصائبين وهم الذين لا يثبتون على دين ينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب، وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة وتقديم الصائبين على النصارى، ورفعها هنا ونصبها هناك ترتيب ثانٍ، فالأول ترتيب على الكتب، والثاني ترتيب على الأزمنة لأن الصائبين وإن كانوا متأخرين

عن النصارى بأنهم لا كتاب لهم فإنهم متقدمون عليهم كونهم قبلهم، لأنهم كانوا قبل عيسى (ع)» (الاسكافي، ١٤٢٣ق: ١٦).

وهناك من يذكر أن للصابئين كتاباً وهو (الزبور)، الصابئون فرقة تعبد الملائكة ويقرءون (الزبور) ويتجهون نحو القبلة (التهانوي، ١٤٢٧ق: ١٠٦/٢)، ويحتمل أن يكون الصابئون هم الصابئة المندائيون وهم فرقة دينية توحيدية ولكنها منحرفة ولديهم كتاب يسمى (كنز ربا) ويقول الفقهاء بأنهم كتابيون أي من أهل الكتاب أمثال اليهود والنصارى والبحث لا يسمح بالتفصيل عن عقائد هؤلاء وديانتهم لأن المراد في البحث بيان سبب ودلالات التقديم والتأخير. ويرى بعض المفسرين أن القول في التقديم هنا نكتة لا طائل من ورائها. إذ يقول: «وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى، فمن قال: إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، يرى نكتة الترتيب بين هذه الأصناف بالترقي من الجدير بالقبول توبته إذا صح إيمانه، ودعم بالعمل الصالح إلى الأجدر بذلك، ويجعل النصارى أقربها إلى القبول ويليهم عنده الصابئون، فاليهود المنافقون، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب، بل مطلق الجمع فلا حاجة إلى تكلف النكتة للتقديم والتأخير» (رشيدرضا، ١٩٤٧م: ٤٧٩/٦). فهو ينفي القول بالتقديم والتأخير في هذه الآية وهذا الكلام غير دقيق، لأن معنى التقديم والتأخير غير مستفاد من حرف العطف (الواو)، وقد أراد الله عز وجل في كتابه الكريم تفهيم المتلقي بهذا التقديم والتأخير، السياق القرآني لا يرفض هذا التقديم والتأخير لأنه من باب الغوص في معاني القرآن الكريم حيث يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت فائدة التنبيه على أن الصابئين أبين هؤلاء المورودين ضلالاً وأشدهم غيياً» (الزمخشري، ١٩٧٣: ٤٨/٢)، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (الحج/١٧)، لم تراعى الرتبة والشرف كما سبق في الآية التي قدم فيها النصارى على الصابئين وذلك لأن الآية ليست بصدد ذكر البيانات الكتابية وإنما فيها عموم للبيانات حتى الذين أشركوا ويحتمل أن يكون التقديم هنا تقديماً رمانياً، أما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ جاء في الترتيب الأخير وذلك لأن المشركين في زمن النبي محمد (ص) كان أكثر من باقي المشركين في زمن الأنبياء والله العالم.

قارون وفرعون

لقد جاء ذكر قارون وفرعون في موضعين وهما مقترنين وقد قدم أحدهما في موضع وقدم الآخر في الموضع الثاني، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي

الأرضِ و ما كانوا سابقين ﴿العنكبوت/٣٩﴾، ففي هذه الآية قدم قارون على فرعون، والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر/٢٣-٢٤) فقد عكس التقديم ولكن مع بقاء هامان ملازماً لفرعون. وقد قيلت في توجيه هذا التقديم والتأخير عدة أقوال منها: أنه تعالى لما وصف عاداً وثموداً بأنهم كانوا مستبصرين في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ ۖ وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت/٣٨)، قدم قارون لأنه كان أشد القوم بصيرة لمعرفة وحفظه التوراة. (اسئلة بيانیه/١٤٥)، ويرى الألوسي أن السبب في الابتداء بـ (قارون) هو لأن المقصود تسليية النبي(ص) فيما لقي من قومه الحاسدين له، وقارون كان من قوم موسى(ع)، ولقد لقي من ما لقي، أو لأنه حال قارون موافق لحال عاد وثمود، إذ كان أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة، ولكنه لم يفده هذا الاستبصار شيئاً وأيضاً لم يفد عاداً وثمود، وهناك احتمال آخر وهو أن تقديم قارون لأنه هلك قبل هلاك فرعون وهامان، أو كما يقول بعض الباحثين أن «قارون أشرف من فرعون وهامان، لإيمانه السابق وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى» (العارضی، ١٩٩٥م: ١٤٥).

أما في الآية التي تقدم فيها فرعون على قارون، فيحتمل أن يكون تقديم فرعون لأنه الملك، وهناك توجيه آخر يذهب فهو يرى أن تقديم قارون في سورة العنكبوت جاء مناسبة لما ورد في السورة من بسط الرزق، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ...﴾ (العنكبوت/٦٢) وقارون بُسِطَ له في رزقه، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (غافر/٢٦)، أما في سورة غافر فإن السياق في الكلام على فرعون أولاً فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ (الفصص/٧٦)، فتناسب تقديم فرعون في سورة غافر.

الخاتمة

هذا ما تيسر لنا جمعه ومناقشته في هذا البحث المتواضع، وإنا نوجز ما توصلنا إليه في النقاط الآتية:

١. التقديم التأخير باب تنبأ فيه الأساليب، و تظهر المواهب و القدرات و يدل على التمكن في الفصاحة، و حسن التصرف في الكلام، و وضعه الموضع الذي يقتضيه المعنى. و هذه قاعدة يتناول الناس في سلوكهم و كلامهم ؛ نحو تقدم الأهم على المهم، الأصيل على الدخيل

٢. فقد تناولنا في هذا المقال التقديم و التأخير في القرآن الكريم، و له جزءان. قسم يشتمل على التقديم و التأخير في علم البلاغة وهو على تقديم بعض الأركان و الأجزاء في الجملة، نحو تقديم المسند على المسند اليه أو تقديم المفعول على الفاعل لأغراض بلاغية إضافة الي معانٍ أصلية فيها؛ و الآخر يبحث في تقديم و تأخير المفردات في القرآن؛ نحو الجن والإنس، و السماء والأرض، و الليل والنهار، و الشمس والقمر، و غيرها من الأسماء المزوجة.
٣. إن كل لفظة في التعبير القرآني جاءت مقصودة لذاتها، و وضعت موضعها الذي وضعت فيه في السياق القرآني، من أجل أن تؤدي معنى مقصوداً لا تؤدي لفظة أخرى غيرها، ولا تؤديه ايضاً نفس اللفظة اذا نقلناها من موضعها الذي هي فيه بالتقديم و التأخير، ولو حدث ذلك لاختل المعنى المراد من الله عزوجل.
٤. لم يكن التقديم و التأخير لرعاية الإيقاع الموسيقي فقط؛ بل الذي يسمونه بالفواصل القرآنية، جاء مقصوداً لغرض يقتضيه المقام، و المعنى الإلهي، و السياق القرآني، و كل تقديم و تأخير فيه جرى على حكمة بالغة، و قدرة فائقة، ليس فيه ما يفسد المعنى، وإنما فيه الواضح الجليّ البليغ.
٥. حاولنا في هذا البحث ان التمس الأسباب الموضوعية و الأسرار الدلالية الداعية الى التقديم و التأخير. و كما نعلم؛ لا تنتهي هذه الأسباب و الأسرار الدلالية. فتستمدّ مجالا فارغاً فراغاً القرآن عبر القرون المتتالية.

المراجع

القرآن الكريم.

- ابن فارس، احمد بن فارس (١٤١٦ق). معجم مقاييس اللغة. بيروت: دارالجيل.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٢م). لسان العرب. بيروت: دارصادر.
- الاسكافي، ابو عبدالله (١٤٢٣ق). درة التنزيل و غرة التأويل. بيروت: دارالمعرفة.
- الألوسي، محمود (٢٠٠٥م). روح المعاني. بيروت: دارالكتب العالمية.
- الاندلسي، ابوحيان محمد بن يوسف (١٤١٨ق). البحر المحيط في التفسير. بيروت: دارالفكر.
- البغدادي، عبدالكريم (١٩٧٧م). الاكسير في علم التفسير. القاهرة: مكتبة الاداب.
- البقاعي، برهان الدين (١٤١٣ق). نظم الدرر في تناسب الايات و السور (ط٢). القاهرة: دارالكتاب الاسلامي.

بنت الشاطي، عائشة عبدالرحمن (٢٠٠٤م). التفسير البياني في القرآن الكريم (ط٨). القاهرة: دارالمعارف.

- البيضاوي، عبدالله بن عمر (١٤١٨ ق). انوار التنزيل وأسرار التأويل (ط١). بيروت: دارصادر.
- التهانوي، محمد اعلى بن علي (١٤٢٧ ق). كشاف اصطلاحات الفنون. بيروت: دارصادر.
- الجرجاني، عبدالقاهر (١٩٩٩ م). دلائل الاعجاز (ط٢). بيروت: دارالكتب العلمية.
- الحسناوي، محمد (١٤٠٥ ق). الفاصلة في القرآن (ط٢). عمان: دارعلماء للنشر و التوزيع.
- الخطيب، عبدالكريم (١٩٦٤ م). اعجاز القرآن (ط١)، القاهرة: دارالفكر العربي.
- خليل ياسين (١٤١٣ ق). اضواء على متشابهات القرآن (ط١). قم: ذوي القربى.
- الراغب الاصفهاني، حسين بن محمد (٢٠٠٢ م). مفردات الفاظ القرآن (ط٣). دمشق: دارالقلم.
- رشيدرضا، محمد (١٩٤٧ م). المنار في تفسير القرآن (ط٢)، القاهرة: دارالمنار.
- الزركشي، بدرالدين (١٤١٢ ق). البرهان في علوم القرآن. القاهرة: مكتبة التراث.
- الزحشري، محمود (١٩٧٣ م). اساس البلاغة (ط١). بيروت: دارالكتب العربية.
- السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٦ م). التعبير القرآني (ط٤). الاردن: دارعمار.
- السبزواري، عبدالاعلى (٢٠٠٣ م). مواهب الرحمن في تفسير القرآن (ط١). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.
- سيبويه، عمرو بن عثمان (١٩٩١ م). الكتاب (ط١). القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الطباطبائي، محمد حسين (١٤١٨ ق). الميزان في تفسير القرآن (ط٥). قم: مؤسسة النشر الاسلامي.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (١٤٠١ ق). مجمع البيان في تفسير القرآن (ط٣). طهران: ناصر خسرو.
- العارضى، رفاه عزيز (٢٠١٢ م). الترتيب في القرآن الكريم (ط١). دمشق: تموز للطباعة والنشر.
- العلوي، يحيى بن حمزة (١٩٩٥ م). الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز (ط١). بيروت: دارالكتب العلمية.
- عون، علي ابوالقاسم (١٤٢٩ ق). بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ط١). بيروت: دارالمدار الاسلامي.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر (١٩٩٠ م). التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دارالفكر.
- الفراهيدي، الخليل بن احمد (١٩٨٦ م). معجم العين. بغداد: دارالحرية.
- فضل، حسن عباس؛ سناء فضل حسن (٢٠٠٩ م). من اعجاز القرآن الكريم (ط٧). الاردن: دارالنفايس.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٢٠١٨ م). القاموس المحيط. بيروت: دارالعلم للجميع.
- الكبيسي، قاسم محمد عبدالرزاق (١٤١٥ ق). التقديم والتأخير في القرآن. (مجلة الحكمة) العدد ٤.
- المسيري، منير (١٤٢٦ ق). دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ط١). القاهرة: مكتبة وهبة.
- مكارم الشيرازي، ناصر (١٤٣٢ ق). الامثل في تفسير الكتاب المنزل (ط١). قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب.